

كتب التراجم في الأدب الجزائري القديم.

تمهيد:

التراجم هي إحدى الفنون النثرية التي تأخذ مادتها من التاريخ والمواقف الإنسانية، وتجارب الحياة المتعلقة بالبشر وقد عرفت الأمم القديمة هذا اللون من الأدب لأنها حفلت بتسجيل ذكريات أبطالها وأعيانها ونبلائها ومشهوريهها وكان هذا التسجيل في صور مختلفة كتابيا في المعابد وعلى الصخور والحجارة و المعادن المختلفة وشفويا توارثه الرواة وعامة الناس ورددوه في مجالهم و أحاديثهم ولهجوا بذكريات أشخاص عاشوا بينهم وخلفوا مآثر تُذكر وأخبارا تُروى.

وقد عرف الرومان والإغريق فن التراجم وكتبوا عن عظمائهم وأبطالهم.

وأما التراث الإسلامي فقد حفل بهذا الأدب أيما احتفال وترجم للأعلام على مختلف الفئات والبيئات و الأعصار في وقت متقدم من عهد التدوين. والحق أن العرب والمسلمين قد عنوا أشد العناية بتراجم رجالهم وطبقات علمائهم وتوفروا على ذلك الفن وافتنوا في تبويبه وترتيبه حتى بلغت العناية والتحفي أن ألفوا في تواريخ البلدان.

و قد كانت الحاجة إلى العناية بالأعلام ماسة في صدر الدعوة الإسلامية وكان أكثرها أهمية سيرة الرسول صلى الله عليه و سلم ثم أعلام الصحابة والتابعين و رجال الحديث و الرواة ووضعت لذلك كنب في السيرة و الطبقات ، أهمها:

-سيرة الرسول صلى الله عليه و سلم لابن هشام الكلبي ت 231هـ

تاريخ البخاري ت 256 هـ

طبقات الصحابة لابن سعد 230هـ

فتوح الشام للواقدي 207 هـ

طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجُمحي ت 231 هـ

ثم أفاض الكتاب في تراجم الأعلام من الصحابة والتابعين و العلماء والأدباء و لم يتركوا أهل فنّ أو علم إلا ترجموا لهم و عرّفوا بهم و ربما قيّدوهم في مجموعات عرفت فيما بعد بالطبقات حتى شملت التراجم خاصة الناس و عامتهم و الرجال و النساء بل هناك من كتب في أنساب الخيل.

و اتخذت التراجم طرائق متعددة فاتجه بعض المترجمين فوضع أسماء الأعلام وفق نسق عام يلتقي فيه أعلام المترجمين على اختلاف مشاربهم و منازلهم و قد عرف ذلك بالتراجم العامة وهناك من وضع الأعلام وفق ما اشتركوا فيه من علم أو تخصص أو طبقة واحدة كالقضاة و النحاة و الأطباء وهي كما يقول مصطفى الشكعة : فكان أن نشأت أنماط من الكتب تتولى الترجمة لأعيان العلماء و عظماء الشخصيات و كان أهمّ تلك جميعا كتب الطبقات و كتب التراجم.

و التراجم العامة هي التي لا تخص فئة معينة ، و إنما تترجم لكل الأعيان و يجتمع فيها الملوك و السلاطين و الوزراء و القادة و العلماء و الفقهاء و النحاة و الشعراء و الخطباء و المتصوفة و الأطباء و كل شخصية يمكن إطلاق صفة “عين” عليها.

بينما كتب الطبقات ، فهي تنظم الأعلام في طبقات وفق علم واحد ، تخصصوا فيه أو طبقة اشتركوا بها ، أو مذهب اعتنقوه ، فنجد من ذلك طبقات الصحابة ، و المحدثين و الفقهاء و الحفاظ و النحاة و الشعراء و المقرئين و غير هذه الأصناف.

وفي التراث العربي أنماط أخرى من التراجم ، و مظان أخرى لمعرفة الأعلام ، و حفظ الأسماء، من ذلك كتب تراجم البلدان، و فيها يتناول كاتبها البلد ، و تاريخ نشأته و عمرانه و تخطيطه ، و تنظيمه السياسي و الإداري ، و طبيعة سكانه و صولا إلى ترجمة أعلامه و أعيانه ، على اختلاف منازلهم من البلد ، و قد نجد تراجم الأعلام في الكتب التاريخ العام، و كتب الشروح اللغوية و الأدبية، و هناك من يُفرد الكتاب الواحد للترجمة للشخصية الواحدة مما قد يصح إطلاق الترجمة الفردية على ذلك النوع.

طرائق المترجمين في ترتيب الأعلام:

اختلف كتّاب التراجم و المؤرخون في ترتيب أسماء المترجم لهم، ولكنهم لا يكادون يخرجون عن الطرائق التالية:

1 الترتيب على القرون و العصور : وذلك بالحديث عن الوفيات و أعيان كل قرن و التعرّض لجوانب من سيرهم و آثارهم مثل البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني ت1250 هـ

-الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلاني ت 902 هـ

-الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزي ت 1061 هـ

2 الترتيب على السنوات : وهذا اللون يُرتب الأعلام حسب سنيّ الوفيات، ثم يخوض في الحديث عن أعمال هؤلاء، و يذكر نُتفا من تراجمهم و أخبارهم، مثل: عيون التواريخ لابن شاکر الکتبي ت764 هـ

شذرات الذهب لابن عماد الحنبلي ت1089 هـ

البداية و النهاية لابن كثير

3 الترتيب على الأسماء : من الكتاب من لم يهتم بترتيب الأعلام ، لا على القرون و لا على السنين، وإنما يرتبهم على حسب حروف المعجم، وهذا النوع لا يُراعي الترتيب الزمّني، وإنما يجعل الأسبقية لأول الحرف من الأسماء، مثل : وفيات الأعيان لابن خلكان ت681 هـ

فوات الوفيات لابن شاکر الکتبي ت764 هـ

4 تواريخ البلدان : و هذا اللون من الكتب من جهة ترتيب أعلامهم لا يخرج عن كتب التراجم العامة ، لكونه يجمع شخصيات البلد الواحد، على اختلاف وظائفهم واهتماماتهم و تخصصاتهم ، ولكنه من جهة ثانية يختلف على التراجم العامة، في عنايته بالجانب الطبيعي و الجغرافي، والسياسي، و الإداري للبلد، قبل أن ينتقل إلى أعلامه ومشاهيره، وقد يُرتب هؤلاء على حسب منازلهم وأدوارهم في هذا البلد، ابتداءً بأولى الأمر من السلاطين، والملوك والوزراء و الحجاب، ومرورا بالقضاة و العلوم و الفقهاء و المحدثين والادباء و الشعراء و انتهاءً بالجواري و الخدم.

التراجم في كتب التاريخ العام وكتب الشروح الأدبية واللغوية

ثمة تراجم لأعلام ليسوا مقصودين في حدّ ذاتهم لكن الكاتب قد يتعرّض لهم أثناء عرض الحوادث التاريخية ، أو أثناء الشرح لقاعدة نحوية أو بلاغية، أو شاهد

شعري و بالتالي هذا التّمط من الأعلام لا يُرتب بطريقة معينة، و إنما يتمّ الحديث عنه عند الحاجة إلى تفسير موقف أو شرح قضية، و نذكر على سبيل المثال في ذلك:

كتاب تاريخ الإسلام للذهبي ت 854 هـ و حسن المحاضرة للسيوطي ت 911 هـ و شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ت لابن نباتة ت 768 هـ
تراجم الأعلام في كتب المغاربة الأندلسيين:

كان لأهل الغرب الإسلامي عناية فائقة بحياة الأعلام و الشخصيات من الأعيان و العلماء فتناولوا أعيان المذاهب و المحدثين و الأدباء و المتصوفة و الأشراف و الأولياء و عامة الأعلام فنذكر في بلاد المغرب و الجزائر خاصة:

أخبار الأئمة الرستميين ابن الصغير

سير مشايخ المغرب لأبي الربيع الوساني

سير الأئمة و أخبارهم لأبي زكريا الورجلاني ت 471 هـ

طبقات المشايخ في المغرب لأبي العباس الدرجيني ت 670 هـ

وهذه المؤلفات كلها في رجال المذهب الإباضي، و من كتب المذهب المالكي ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة مذهب الإمام مالك للقاضي عياض ت 544 هـ.

— و أما في تراجم المحدثين، فنجد الوفيات لابن قنفذ القسنطيني ت 810 هـ، و عنوان الدراية لأبي العباس الغبريني ت 714 هـ،

—الفهرسة المباركة، لابن غازي المكناسي ت 704 هـ

—البستان في ذكر العلماء و الأولياء بتلمسان لابن مريم في التصوف

—وفي تراجم الأدباء نجد : نثير فرائد الجمان، لابن الأحمر ت 807 هـ

و أما أهل الأندلس فلهم بالمصنفات في التراجم ما يضاهي ما كتب في هذا الفن في الأدب المشرقي، فكانت لهم سلسلة كاملة تترجم للأعلام يستدرك فيها بعض على بعض، و يضيف إليها المتأخر ما أغفله المتقدم، و عرف عندهم ما يُسمّى

الإستدراك ، و التذييل، والإضافات ما يجعل تعدد كتابة التراجم مدرسة رائدة منسجمة حتى نهاية الوجود العربي في الأندلس، ومن هذه السلسلة نذكر:

تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ت 403 هـ

جذوة المقتبس للحميدي ت 488 هـ

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام 542 هـ

بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس للضبّي ت 599 هـ

الصلة لابن بشكوال ت 578 هـ

التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار ت 657 هـ

الذيل و التكملة لكتابي الموصول والصلة لعبد الملك المراكشي ت 703 هـ

المطرب في أشعار أهل المغرب لابن دحية ت 633 هـ

و هكذا لا تكاد تحفل أمة بتاريخ رجالها و نساءها و ترجمة أعلامها كالأمة العربية الإسلامية التي امتلأت مكتباتها، بمئات المصنفات و المعاجم التي تترجم للأعلام في مختلف الأقاليم الإسلامية في المشرق و المغرب و لا يسع المجال في هذا العرض إلى الإحاطة بأسماء هذه المصنفات و ما ذكرناه كان للإشارة و التمثيل و التدليل على عناية المؤلفين القدامى بهذا اللون من الكتابة مما يجعل آلاف الأعلام تحت الضوء في مختلف ألوان المعرفة الإنسانية.

كتاب الوفيات لابن قنفذ القسنطيني (أنموذجا للدراسة)

التعريف بالكاتب:

أبو العباس، أحمد بن حسين (أو حسان) بن علي بن الخطيب، القسطنطيني الجزائري(740 - 810 هـ/1339 - 1407م) الإمام العلامة المتفّن، الأديب الرحال، الشيخ الفاضل الصالح.

ويعرف بابن قنفذ، وابن الخطيب، وابن قنفوذ. وسبب شهرته بابن الخطيب أن جدّه الأعلى تولى الخطابة في مدينة قسنطينة مدة خمسين أو ستين سنة. ثم تولاها من بعده والد المترجم.

درس على والده وكان أديباً مرموقاً وعلى جدّه لأمه؛ أبي يعقوب الملاري من مشاهير الصوفية، ثم على شيوخ بلده قسنطينة، حيث أخذ علوم العربية والعلوم الدينية عن عدد وافر من الأئمة، منهم: الحسن بن خلف الله القيسي القسنطيني، والحسن بن أبي القاسم بن باديس.

عاصر ابن قنفذ شطراً من عهد الدولة الحفصية في تونس؛ والتي امتد سلطانها من تلمسان إلى طرابلس الغرب، كما عاصر دولة بني مرين الأولى التي قامت في المغرب العربي.

وقد عرفت الجزائر في القرن الثامن الهجري حركة تأليف واسعة النطاق شملت مختلف أنواع العلوم المعروفة آنذاك؛ التي كانت تدرس في مساجد تلمسان والجزائر وبجاية وقسنطينة وبونة .

ولما بلغ ابن قنفذ التاسعة عشرة من عمره سنة 759هـ رحل إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى للأخذ عن علماء جامعتها وغيرهم من علماء المغرب، وأشهرهم ابن مرزوق التلمساني، المشهور بلقب الجدّ .

سمع منه ابن قنفذ "صحيح البخاري" وغيره في مجالس مختلفة، والشريف التلمساني (ت771هـ) الذي كان من أعلام المالكية في عصره، وكان الوزير لسان الدين بن الخطيب كلما ألف كتاباً بعثه إليه، وعرضه عليه، وعبد الله الوانغيلي الفاسي (ت779هـ) قرأ عليه ابن قنفذ "مختصر ابن الحاجب" في الأصول، و"الجمال" في المنطق، وأبو عمران العبدوسي (ت776هـ) لازمه ابن قنفذ بمدينة فاس مدة ثماني سنين، يأخذ عنه الفقه، والشيخ الفقيه أبو زيد اللجائي الفاسي (ت773هـ) أخذ عنه العلوم السماوية، وأبو العباس القباب (ت788هـ) لازم ابن قنفذ درسه في الحديث والفقه وأصول الدين، وأبو محمد الهرغي الزقندري (ت768هـ) حضر ابن قنفذ درسه بمراكش في التفسير والحديث والفقه، وقاضي غرناطة أبو القاسم الحسيني السبتي؛ المعروف بالشريف الغرناطي (ت760هـ) وذلك حين قدم هذا إلى فاس في زيارة لها.

وبعد إقامته في قسنطينة بنحو عام واحد، رحل إلى مدينة تونس، حيث قرأ على ابن عرفة الورغمي الفقيه المالكي في جامع الزيتونة، ثم عاد إلى قسنطينة وقد علت شهرته في كثير من العلوم، كالتراجم والحديث والفلك والفرائض. وفي قسنطينة ولي الخطبة والإفتاء والقضاء، وعكف على التدريس والتأليف إلى أن توفاه الله.

مؤلفاته:

ترك مؤلفات كثيرة جداً بلغ عددها نحو 30 في فنون متنوعة، كالفقه والتوحيد والطب والفلك والمنطق والعروض والحساب والبلاغة والنحو والأصول والفرائض والتراجم.

وأشهر مؤلفاته المطبوعة "كتاب الوفيات" وهو معجم زمني موجز جداً لوفيات الصحابة وأعلام المحدثين والفقهاء والمؤلفين، ما بين سنة 11 و807 هـ، واستهله بوفاة الرسول محمد وهكذا حتى يصل إلى سنة 807 هـ قبل وفاته بسنتين أو ثلاث سنوات.

جعل ابن قننذ كتابه هذا ذليلاً لكتاب «شرف الطالب في أسنى المطالب»، ورتبه على القرون وعلى تواريخ وفياتهم. أما سائر مؤلفاته فقد طبع القليل منها، وبعضها الآخر إما مفقود وإما أنه لا يزال مخطوطاً. وأشهرها «تقريب الدلالة في شرح الرسالة» في أربعة أسفار، و"معاونة (أو معونة) الرائد في علم الفرائض" وهو شرح للأرجوزة التلمسانية في الفرائض، و"إيضاح المعاني في بيان المباني" وهو شرح لرجز في المنطق نظمه أبو عبيد الله المراكشي الضرير، من أهل قسنطينة، و"أنس الفقير وعز الحقير، في رجال من أهل التصوف" كأبي مدين وأصحابه، و"أنوار السعادة في أصول العبادة" وهو شرح لقوله "بني الإسلام على خمس...". الحديث، و"هداية السالك في بيان ألفية ابن مالك"، و"سراج الثقات في علم الأوقات»، و«أنس الحبيب عند عجز الطبيب»، و"تيسير المطالب في تعديل الكواكب"؛ ولم يهتد أحد إلى مثله من المتقدمين، و"بسط الرموز الخفية في شرح عروض الخزرجية"، و"حطّ النقاب عن وجوه أعمال الحساب"، و"الإبراهيمية في مبادئ علم العربية"، و"بغية الفارض من الحساب والفرائض"، و"الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية"، و"شرف الطالب في أسنى المطالب".

الهوامش:

- الغبريني ، عنوان الدراية ، تحقيق: عادل نويهض ، بيروت ، دار النشرن الطبعة الثانية ، أفريل 1969.
- ابن قنفذ القسنطيني ، كتاب الوفيات ، تحقيق: عادل نويهض ، بيروت، دار الآفاق الجديدة ، 1983، ط4،